أحلام شهرزاد (١)

قصة : للدكتور طه حسين بك

هنا في المقتطف صحيفة الخاصة الصفاة ، حيث تبعد عن الجماهير ولغط الجماهير . هنا في محراب الفكر حيث نستطيع أن نجرد الداخلين اليه من كل صفة إلا صفة الفن ، وحيث علك أن نجرد الدكتور طه من رتبه وألقابه ومناصبه — وحتى من ردائه الجامعي — فندعوه فقط « طه حسين الأديب » هنا نستطيع أن نقول في « أحلام شهرزاد » كلمة حق خالصة كالتي تقال في المحاريب !

لقد قرأ الناس هذه القصة ، فأنا في غير حاجة الى عرضها أو تلخيصها ، ولقد قرأوا شيئاً حولها وحول « شهرزاد » لتوفيق الحكيم في الصحف الاسبوعية ، فأود هنا أن أضع الأمر في نصابه بسلوك طريق العرض التاريخي والوزن الفني

قصص « ألف ليلة وليلة » تعد مصدراً لمسرحية « شهرزاد » وقصة « أحلام شهرزاد » في آن . فلننظر كيف دخلت « شهرزاد » في عالم الأدب الفني في العصر الحديث :

لقد بقيت هذه القصص المعروفة ، شعبية لا تشع شيئاً في عالم الأدب الفني — اللهم إلا دراسات عن هذه القصص ومؤلفيها وعصور تألفها ومواطنها

وكان أول شعاع أرسلته هذه القصص الشعبية الى عالم الفن الأدبي هو قصيدة العقاد في الجزء الاول من ديوانه الذي صدر سنة ١٩١٦ وعنوانها « شهرزاد أو سحر الحديث » وفيها يقول عن « شهريار »

أضمر الشر للنساء حقودا وأبى الحقد أن يكون رشيدا

---

(١) الحلقة الأولى من سلسلة « اقرأ » نشر مطبعة المعارف بمصر

خفرت عهده فتاة فأبى لا يصونُ الفتاء عهودا
فلهُ طلعة بها أجل العيد رهين يستنجز الموعودا
زهرات يشمها ثم يبري يشبا السيف غصنها الأملودا
أتقا أن يمس غير شبا السيف محوراً يلهو بها وقدودا

الى أن يقول (وهو الاشعاع الجديد الذي أرسلتهُ قصص ألف ليلة وليلة) :

عرفت طب دائه «شهر زاد» فدعتهُ وهو الشقي سعيدا (١)
كان فظًّا فؤاده مغلق النفس كظيماً لا يستلان عنيدا
فألانتهُ بالمقال فأصغى ومن القول ما يلين الحديدا
وأرتهُ أحاظيَّ الناس من قبـ ـر نحوساً مقسومة وسعودا
فرأى قلبه وكان فريداً م يعد بعد في القلوب فريدا
جذلاً كان صفوه لا غراماً وجد الآن قلبه المفقودا!
وانثنى يستطيبُ من ذلك النغـ ـر الأحاديث لا الرضاب البرودا

كان هذا أول دخول قصص ألف ليلة وليلة الى عالم الأدب العربي الفني في باب الشعر، ثم كانت سنة ١٩٣٤ فأخرج توفيق الحكيم رواية «شهرزاد» في باب التمثيليات، ثم كانت سنة ١٩٣٦ فأخرج طه حسين وتوفيق الحكيم قصة «القصر المسحور» في باب القصص ثم كانت سنة ١٩٤٢ فأخرج طه حسين وحده قصة «أحلام شهرزاد»

هذه هي السلسلة التاريخية لدخول «قصص ألف ليلة وليلة» في عالم الادب وإشعاعها في جو الفن في العصر الحديث

فأما الطبيعة الفنية لهذا الاشعاع: فقصيدة العقاد التي نقلنا معظم أبياتها تصور لنا المفتاح الذي فتحت به «شهرزاد» قلب «شهريار» وقد كان «مغلق النفس» ذلك المفتاح في جزء منهُ هو انها دعتهُ سعيداً وهو الشقي فألانته بما خيلت له من انهُ يتمتع بما يتمناه وما يفتقده فلا يلقاه. وفي جزء آخر أنها أرتهُ أحاظي الناس فوجد لقلبه أشباهاً ونظائر ولم يجد حظهُ فريداً في الحظوظ ولا قلبهُ فريداً في القلوب فأصغى اليها جذلاً بتصويرها للحظوظ والقلوب لاغراماً بها!

(١) كانت شهرزاد تبدأ قصصها بنداء «أيها الملك السعيد»

وأما تمثيلية توفيق الحكيم فقد بدأها من حيث « أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح » حيث استحال « شهريار » ذلك الملك الوحشي انساناً جديداً « خلقته شهرزاد » خلقاً جديداً « وكأنما كشف لبصيرته عن أفق آخر لا نهاية له » وإنه ليحاول أن يتخلص من الحدود التي تسده وتقيده عن الانطلاق والمعرفة ، يحاول أن يتخلص من الجسم ومن المكان ، ويحاول أن يحل لغز « شهر زاد » التي تركته في حيرة من أمرها شديدة

وأما قصة « القصر المسحور » فتبدأ بعد تأليف تمثيلية شهرزاد وخلق شخصياتها جميعاً « الملك شهريار والملكة شهرزاد والوزير قمر والعبد ومنصور الجلاد ... الخ » وحيث يشترك طه حسين وتوفيق الحكيم في زيارات لشهرزاد بقصرها المسحور ، وفي شراك ينصبها طه لتوفيق وينصبها توفيق لطه عند شهرزاد وعند أبطال مسرحية شهرزاد . وحيث يقع الجميع في قبضة الزمن وقبضة التاريخ ، فتدور محاورات ومحاكمات فلسفية ليس هنا موضع استعراضها ونقدها على كل حال

وأما قصة « أحلام شهرزاد » فتبدأ بعد تمام ليال من حيث « أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح » . وحيث طال الصمت على « شهريار » واشتاق الى أحاديث شهرزاد التي خلقت منه إنساناً جديداً « وتركت في نفسه وامام عقله من الألغاز والاسرار ما يكلفه الجهد المضني » وحيث يحاول أن يحل لغز « شهرزاد » التي تركته في حيرة من امرها شديدة

ولكن شهريار طه حسين لا يحاول أن يتخلص من المكان ولا من الجسد ، ولا يقوم برحلات طويلة ولا يضحي التعب في سبيل هذا التخلص ، ولا يذهب الى بيت الساحر حيث تذبح القطاة المسحورة ليقول له رأسها المقطوع « من هي شهرزاد » ولا يأتي في النهاية من شهرزاد ومن الدنيا جميعاً الى حيث لا يعلم مصيره أحد ، كما صنع توفيق الحكيم بشهريار المسكين !

شهريار طه حسين أطوع وآنس ، وشهرزاد طه حسين تملك من أمر شهريارها أن ترده عن التعلق بالسماء وأن ترشده وتبصره وتقود زمامه في النهاية إلى حيث تشاء ، فلا يأتي الى حيث لا يعلم مصيره أحد !

وشهرزاد توفيق الحكيم تحاور شهريارها حواراً فلسفيًّا مرة ، وتحاول أن تهبط به الى الارض مرة ، وأن تنقذه بإثارة غرائزه مرة . . . ولكنهُ يأبى الى غير عودة . أما شهرزاد طه حسين فتعيد على شهريارها قصة كقصص ألف ليلة وليلة عن الملك «طهمان بن زهمان» ملك الجن وابنته «فاتنة» فيها جر ألف ليلة وليلة وفيها نسقها . ولكن بها بعد ذلك توجيهات اجتماعية وسياسية وفكرية حساسة ، بل شديدة الحساسية . تقص شهرزاده هذه القصة على خمس ليال ولكن في « الاحلام » لا في العيان !

وهي لا تقص على شهريار — في الأحلام — هذه القصة فحسب ، إنما هي تحاوره الحوار الفكري مرة ، وتحاول أن تهبط به الى الأرض مرة ، وتقوده في ذورق يسبح في النور والموسيقى والماء مرة . . . وهناك تعرض له مناظر فاتنة محيرة تزيد لغزها في نفسه تعقيداً ، فهؤلاء عذارى مرحات مشرقات يسبحن بزواقهن والجو باسم والنفوس مرفرفة . أولئك هن الناجيات من شهريار . . . وهؤلاء عذارى محزونات كاسفات يسبحن بزواقهن والجو قابض والصدور مثقلة . أولئك من الهالكات على يد شهريار

شهريار طه حسين قريب الشبه بشهريار توفيق الحكيم في الانقلاب الذي طرأ عليه في أثر شهرزاد وأحاديثها في نفسه ، وشهرزاد له — بين قريبة الشبه بشهرزاد توفيق الحكيم فيما عدا جانبها الغريزي الذي تصوره علاقتها بالعبد . ولكن الأمر — في الحوادث — يأخذ بعد ذلك في الاختلاف

فأما توفيق فيمضي على طريقته وطبيعته وملابسات حياته وأثر المرأة في نفسه ، فإذا شهريار لا يهبط الأرض أبداً وإن لم يبلغ السماء ، ولا يستمع الى شهرزاد ولا يستفيد لها كالطفل الا في لحظات الضعف ، ربما يعاوده تهاره القديم ! ثم إذا هو يأبى في النهاية الى غير أوبة حتى الآن !

وأما طه فيمضي كذلك على طريقته وطبيعته وملابسات حياته وأثر المرأة في نفسه ، فإذا شهريار يستمع الى شهرزاد ويركن اليها ويستريح الى صحبتها وبالتالي توجيهها وإرشادها ، وإذا هي تعنى به في نومه ويقظته وفي حركاته

وسكناته حتى لتوطىء له الفراش وتسنده بالحشايا . ثم اذا هي تقص عليه في الأحلام قصة تخوض فيها في السياسة والاجتماع والحكم كما تشاء :

من قصيدة العقاد ومن مسرحية شهرزاد ، ومن قصة أحلام شهرزاد تتبين ثلاث طبائع وثلاث طرائق ، وثلاثة مظاهر لتأثير نوع الحياة وملابساتها في طبائع الفنانين وطرائقهم . فالعقاد في قصيدته هو الاديب المحلل للنفس الانسانية في الحياة ، وللحالات النفسية في تطوراتها وتقابلها ، العالم بمداخل هذه النفس ودروبها ومنعرجاتها ، الشيقظ لمزايا المرأة على اختلافها !

وتوفيق الحكيم في تمثيليته هو الاديب المعنيّ بمسائل الفكر والفلسفة ، المتنزل عن الحياة الراقصة وملابساتها ، المبهور بالمرأة الحذر المتخوف منها ، الغامض المبهم الذي لا يصل بشيء الى نهاية ولا يحسم في أمر برأيه !

وطه حسين في قصته هو الاديب المشغول بمسائل المجتمع والحكم والسياسة الضارب في حياة الاجتماع بسهم ، المسروح بالمرأة وأثرها اللطيف في حياة الفرد وحياة المجتمع وتوجيه الفرد وتوجيه المجتمع !

واستعراض أعمال الأدباء الثلاثة جميعاً يستطيع أن يعطينا مثل هذه الصورة في وضوح وتفصيل ، ولكنه لا يزيد كثيراً على طبيعتها الحقيقية

وتلك علامة الاصالة في النفوس والفنون سيد قطب

لنا جلساء لا تملّ حديثهم ألبّاء مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ورأياً وتأديباً وحزماً وسؤددا
فان قلت أموات فلم تعدُ أمرهم وان قلت أحياء فلست مفندا

الكتب عند الشباب وبهجة الشيخوخة : شيشرون

هذه مكتبتي واية دوقية تساويها ؟ : شكسبير